حول منهج القرآن الكريم
في إثبات العقيدة الإسلامية

بقلم
الدكتور عبد الحميد على عز العرب
مدرس العقيدة والفلسفة

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .... وبعد :

فليس خافياً على الأذهان أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبى (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه المعجزة الخالدة الباقية التى تشهد بنبوته عليه السلام ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن القرآن الكريم لا ينحصر إعجازه فى جانب واحد فحسب ، وإنما يمتد ليشمل جوانبه كلها ، حتى فى تسميته قرآناً ، وفى تسمية أجزائه سوراً وآيات . قال الجاحظ : « سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل ، سمى جملته قرآناً كما سموا ديوانا ، وبعضه سورة كقصيدة وبعضها آية كالبيت ، وآخرها فاصلة كقافية[1] .

---

(١) السيوطى : الإتقان جـ ١ ص ٥ .

وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن الحكمة التي من أجلها أنزل القرآن على النبي ﷺ وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فقال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (إبراهيم : ١) حتماً إن القرآن الكريم أخرج الناس من ظلمات الشرك والجهالة إلى نور الهدى والإيمان ، فلقد شهد العالم فيما قبل الإسلام تردياً وانحلالاً في كل مناحي الحياة ، لاسيما في الجانب الديني فاليهودية والنصرانية ، انحرف بهما الأحبار والرهبان عن الجادة الصحيحة ، حتى صارتا إلى الوضعية أقرب من كونهما وحياً سماوياً .

فوصفت اليهودية الخالق عز وجل بصفات خلقه ، قال تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله » (التوبة : ٣٠) . وقال تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » (المائدة : ٦٤) .

وكذلك فعلت المسيحية حيث نسبت إلى الله عز وجل الولد ، وزعمت أن أن الله ثالث ثلاثة ، قال تعالى : « وقالت النصارى المسيح ابن الله » (التوبة : ٣٠) وقال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد » (المائدة : ٧٣) .

وعبد العرب الأصنام ، وتعددت صور عبادتهم لها ، روى البخاري : « عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، وإذا لم نجد حجراً جمعنا حصوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به »[1] .

وقال الكلبي في كتاب الأصنام : « كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح : كتاب المغازي .

أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فجعله ربا ، وجعل ثلاث أثافى لقدره وإذا ارتحل تركه »[1] .

ومن ثم وجدنا الإسلام يستهل رسالته بدعوة الناس إلى العقيدة السليمة ، التى إن اطمأنت إليها نفوسهم ، واستيقنت بها قلوبهم ، وقرنوها باتباع ما أنزل الله من الشريعة والفضيلة ، هدوا إلى حياة طيبة فى الدنيا والآخرة ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (النحل : ٩٧) .

---

(١) الكلبي : الأصنام ص ٣٤ .

مناهج القرآن الكريم فى إثبات العقيدة

تعددت مناهج القرآن الكريم ، وتنوعت مسالكه فى إثبات العقيدة الإسلامية ، ذلك أن المتأمل يجد نفسه أمام نوعين من الحقائق :

أحدهما : حقائق غامضة خفية ، تحتاج فى إثباتها إلى برهنة واستدلال ، وهى فى الوقت نفسه ، وإن تم الاستدلال عليها ، لا تدركها إلا فئة خاصة ، ولا تتقبلها إلا عقول معينة ، ومثال ذلك : ما نشاهده من الحقائق العلمية التى يزخر بها عصرنا الحاضر .

الثانى : حقائق ظاهرة جلية ، لا تحتاج إلى طريقة من طرق الإثبات ، ومن ثم ، فهى صالحة ، للعامة والخاصة ، تدركها العقول على السواء ، وحقائق القرآن الكريم ، بما فيها الحديث عن العقيدة وأركانها من هذا النوع الأخير الذى لا يتطلب برهنة أو استدلالا ، ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يذكر أركان هذه العقيدة ، ويطالب الخلق بالإيمان بها والإذعان لها .

ولكن المكابرة والعناد تميل برؤوس الكثيرين ، وتحول بينهم وبين الإيمان بالحق رغم ظهوره ، فعمدوا إلى حقائق القرآن الكريم ، يثيرون الشكوك حولها بشبهات ألبسوها ثوب الحق ، ظنا منهم أن ذلك يقوض القرآن الكريم ويهدمه ، وهيأت لهم ذلك : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (التوبة : ٣٢) .

فأخذ القرآن الكريم يرد على هؤلاء ، ويلجمهم عن طريق الحس والمعاينة ويفحمهم ، كما يبطل دعواهم ويلزمهم فساد معتقدهم ، ومن ثم اتخذ مسلكا آخر فى إثبات هذه العقيدة عن طريق الدفاع عنها والاستدلال عليها .

وإذا كان التعصب والتقليد ، قد حال بين الكثيرين وبين إيمانهم بما جاء

فى القرآن الكريم متابعة لما كان عليه آباؤهم فى الجاهلية ، فإن القرآن الكريم يسلك معهم مسلكا ثالثاً ، حين يقدم لهم هذه العقيدة مقسما عليها ، ومؤكداً لها ، بما يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ، ويؤكد الحجة ويقيم البرهان .

وفضلا عن ذلك كله ؛ فقد رأينا القرآن الكريم يقدم لنا المعانى المعقولة، التى قد تخفى على بعض الناس ، فى صورة حسية رائعة ، حتى تزداد حقائقه جلاءاً ووضوحا .

(أ) تقرير القرآن الكريم لأركان العقيدة الإسلامية :

فى القرآن الكريم ، آيات تقدم لنا أركان العقيدة مجتمعة ، وأخرى تقدم لنا كل ركن على حدة . ولعل الحكمة فى ذلك ، مطالبة الخلق أن يؤمنوا بأركان هذه العقيدة جملة وتفصيلا :

فمن الآيات التى تقدم لنا أركان عقيدة الإسلام مجتمعة : أو أركان الإيمان ، كما هو تعبير القرآن الكريم ؛ قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا أولئك هم المتقون » (البقرة : ١٧٧) .

فقد تضمنت الآية الكريمة ، أركان العقيدة الصحيحة ، من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ؛ وإيمان بالقدر خيره وشره . وهى الأركان التى بينتها السنة الشريفة ، فقد جاء فى حديث جبريل الذى سئل فيه النبى (ﷺ) عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة حيث قال الرسول الكريم عن الإيمان : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره »[1] .

ومن الآيات التى ذكرت كل ركن على حدة :

فى التوحيد : قوله تعالى : « الله لا إله هو الحى القيوم » (البقرة :٥٥) وقد شهد الله بتوحيده لنفسه ، وشهدت به له الملائكة ، وكذلك أولوا العلم ، قال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » آل عمران : ١٨) واستخرج الله بنى آدم بعضهم من بعض ، وأخبرهم أنه ربهم ومليكهم ، وأشهدهم بذلك على أنفسهم ، قال تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » الأعراف : ١٧٢ [2] .

وفى القرآن سورة بعينها لهـــذا الغرض ، وهى سورة الإخلاص : « بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (سورة الإخلاص) .

ويروى فى سبب نزول هذه السورة ، أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن ربه فقالوا : صف لنا ربك ، أمن ذهب ؟ أم من فضة ؟ فنزلت هذه الآية .

فهذه السورة هى الأصـــل الجامع فى إثبات توحيده ، إذ هى تنفى ، كما يقول العلماء ، أنواع الكفر الثمانية : فقوله : (قل هو الله أحد) نفى الكثرة والعدد . وقوله : (الله الصمد) وهو الذى يقصد فى الحوائج ، نفى القلة والنقص ـــ وقوله : (لم يلد ولم يولد) نفى كونه علة لغيره ، أومعلولا له . وقوله : (ولم يكن له كفواً أحد) نفى الشبيه والنظير .

وفى وظيفة الرسل وبيان الغاية من بعثتهم جاء قوله تعالى ، (رسلا

---

(١) مسلم : صحيح مسلم : كتاب الإيمان .

(٢) على أبى العز الحنفى : شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية ص ٢٦٥ .

مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما » (النساء : ١٦٥) .

وفى الأخبار بأن القرآن نزل من عند الله وسائر الكتب المنزلة ، جاء قوله تعالى : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » (آل عمران : ٣) .

وفى بيان أن محمداً ، (ﷺ) رسول من عند الله ، جاء قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴿ محمد رسول الله » (الفتح : ٢٨—٢٩) .

وفى اليوم الآخر وما ينبغى على العبد نحوه ، جاء قوله تعالى فيما يقال إنها آخر آية نزلت « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم يظلمون) (البقرة : ٢٨) .

وفى الإيمان بالقدر ، وأن كل شىء واقع بمشيئته وإرادته ، جاءت آيات كثيرة ، فنكتفى بذكر واحدة منها ، قال تعالى : « وما أصابك من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (الحديد : ٢٢) .

(ب) الدفاع عن العقيدة الإسلامية والاستدلال عليها :

يقوم المسلك القرآنى فى إثبات العقيدة فى جوهره على الجدل ، فما هو ذلك الجدل فى أصل اللغة وعند أهل الاصطلاح ؟ وهل أمر الله نبيه ﷺ أن يتخذه سبيل من سبل النشر للدعوة الإسلامية على إطلاقه ، أم حد له حدوداً ، وجعل له قيوداً ؟ ذلك ما نعالجه فيما يلى :

حقيقة الجدل :

حقيقته فى اللغة : يدور الجدل فى اللغة على معانى كثيرة ، أشهرها يقال فى الخصومة والقدرة عليها ، وقد جادله مجادلة وجدالا ، ورجل جدل ومجدل ومجدال : شديد الجدل . ويقال : جادلت الرجل مجدلته جدلا : أى غلبته . ورجل جدل إذا كان أقوى فى الخصام ، وجادله أى خاصمه ، مجادلة وجدالا ، والاسم « الجدال » ، وهو شدة الخصومة[1] .

وأصل الاشتقاق من الجدل ، وهو شـــدة القتل ، ومنه قيل لزمام الناقة جديل .

قال امرؤ القيس :

وكشح لطيف الجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المدالل[2]

قال ابن سيده : جدل الشيء يجدله جدالا : أحكم فتله ، والجدل معناه : الصرع ، من الجدالة وهى الأرض سميت بذلك لشدتها .

قال الراجز :

قـد أركب الآلة بعد الآلة وأترك العـــاجز بالجدالة

يقال : جدله جدالا ، وجدله فانجدل وتجدل : صوغه على الجدالة[3] .
وفى الحديث عن النبى ﷺ : « أنا خاتم النبيين فى أم الكتاب وإن آدم

---

(١) ابن منظور : لسان العرب . جـ ١١ ص ١٠٥ .

(٢) المعلقات . ص ٨٤ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب : جـ ١١ ص ١١ ، ص ١٠٣ الزمخشرى : أساس البلاغة ص ١٦١ .

لمنجدل فى طينته »(1) ، أى « ملقى على الجدالة وهى الأرض »(2) .

وخلاصة المعنى اللغوى للجدل أنه : اللدد فى الخصومة ، والقدرة عليها ، وامتداد الخصومة ، ومراجعة الكلام ، كما ذكره ابن فارس حيث قال : « الجيم والدال واللام أصل واحد ، وهو من باب استحكام الشىء فى استرسال يكون فيه . وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام »(3) .

حقيقته فى الاصطلاح :

فهو المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ، قال ابن سيناء : « أما المجادلة فهى مخالفة تبغى إلزام الخصم بطريق مقبول محمـــود بين الجمهور »(4) .

وقال صاحب المصباح المنير ، بعد أن ذكر المعنى اللغوى للجدل : « ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها »(5) .

وقال الجرجانى : « الجدل عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها »(6) .

وقال أبو البقاء : « الجدل عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون إلا منازعة غيره »(7) .

---

(1) الإمام أحمد . مسند ابن حنبل ج ٤ ص ١٢٧ .

(2) ابن الأثير : النهاية فى غريب الحديث ج ١ ص ٤٣٣ .

(3) ابن فارس : مقاييس اللغة ج ١ ص ٤٣٣ .

(4) ابن سيناء : الشفاء : كتاب الجدل ج ١ ص ٢٣ .

(5) المصباح المنير ص ١٢٨ .

(6) الجرجانى : التعريفات : ص ٦٦ . محيط المحيط ج ١ ص ٢٢٣ .

(7) أبى البقاء : الكليات ص ١٤٥ .

وقصارى القول ، بعد عرضنا لهذه المعانى «أن الجدل والجدال : هو الخصومة والمنازعات ، فى البيان والكلام لإلزام الخصم بإبطال مدعاه ، وإثبات دعوى المتكلم .

الجدل الذى أمر به النبى ﷺ :

وإذا كان الجدل طبيعة من طبائع الإنسان ، كما سجل القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى : « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » (الكهف : ٥٤) .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالجدل ، سبيلا من سبل تبليغ الرسالة ، ونشر الدعوة ، لكنه الجدل اللين الهادىء ، الذى لا يصحبه عنف ولا حدة ، قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن» (النحل : ١٢٥) وهى الطريقة نفسها التى أبيح بها مناظرة أهل الكتاب، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن» (العنكبوت:٤٦) .

فما كان الإسلام ليأمر بالجدل على إطلاقه ، وما كان ليمد فى حبله ، أو يدعو للإسراف فيه ، فكثيراً ما كانت تختم آيات الجدل بأمر الرسول ﷺ بتسليم الوجه لله ، وتفويض الأمر إليه ، قال تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله » (آل عمران : ٢٠) .

وقال تعالى « وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » (الحج : ٦٨ — ٦٩) .

والجدل فى القرآن الكريم ، لا يكون إلا من أجل الحق إحقاق وإظهاره . أما الجدل بالباطل ، فذلك دأب الكافرين ودينهم ، يسجل القرآن ذلك بقوله: « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » (الكهف : ٥٦) .

وقال تعالى فى شأن الكافرين أيضاً : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » (غافر : ٥) .

طريقة القرآن فى الجدل والمناظرة:

للقرآن الكريم طريقته الخاصة فى مناظرة خصومه ، وإلزامهم بما يفحمهم ، ويبطل مدعاهم ، وذلك فى صورة واضحة جلية ، تلائم جميع العقول ، وتقنع العامة والخاصة على السواء ، وأبطل القرآن من خلالها كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع ، فى أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لايحتاج إلى إعمال عقل ، أو كثير بحث .

والطريقة التى سلكها القرآن فى المناظرة ، تختلف عن طرق المتكلمين القائمة على استخلاص النتائج من المقدمات ، يستوى فى ذلك ما كان قائماً منها على قياس الشمول ، أو التمثيل أو الاستقراء . ولكن لماذا لم يسلك القرآن طريقة المتكلمين هذه ..؟

إن الزركشى يرجع ذلك إلى سببين :

أحدهما : نزول القرآن بلغة العرب ، وهم لاعلم لهم بفن المنطق وقواعد الكلام ، ومن ثم خاطبهم الله بما يعرفون .

والثانى : إن ترك الاستدلال بالجلى من الكلام ، والالتجاء إلى الخفى منه غموض وألغاز ، لايفهمه إلا خواص الناس .

يقول الزركشى : « اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة ، وتقسيم وتحديد شىء من كليات المعلومات ، العقلية والسمعية ، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب ، دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قلناه : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (إبراهيم : (٢٤) .

الثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة ، هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل

من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح ، الذى يفهمه الأكثرون ، لم يتخط إلى الأغمض ، الذى لايعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزاً »(١) .

ولكننا لانشارك الزركشي فى أن نزول القرآن بلسان العرب ، وعدم درايتهم بقواعد المنطق ، كان أحد السببين اللذين عزى إليهما إعراض القرآن عن هذه الطريقة ، فلو أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، كانوا على أعلى درجات المعرفة بأصول المنطقيين وقواعدهم ، أو لو أن القرآن نزل بلغة المناطقة أنفسهم ، ما غير ذلك من الأمر شيئاً ، ولأعرض القرآن عن أقيسة المتكلمين وطرقهم ، مثل ما أعرض الآن . وكيف يسلك القرآن الكريم ، وهو الكتاب المعجز من كل جوانبه ، طريقة بشرية قابلة للخطأ والصواب ، لاتخلو من الغموض والألغاز ، فطريقة المتكلمين ، وما على شاكلتها ، قاصرة ، إن لم تكن عاجزة ، عن بلوغ هدفها . فمثلا : أدلة التوحيد المذكورة فى القرآن ، من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها ، من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية ، وذلك على عكس أدلة المتكلمين . وقد تنبه لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول : « وما يذكره النظار من الأدلة القياسية ، التى يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى ، لا يدل شيء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلى ، لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنا إذا قلنا : هذا محدث ، وكل محدث فلا بد له من محدث ، أو ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق ... لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » ، كما قال : « فبرهانهم لايدل على شيء معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ، ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلى ، والكلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب

---

(١) الزركشي : البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٤ .

الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله ، وقال : « وهذا بخلاف ما ذكر الله من الآيات فى كتابه كقوله : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيهما من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة : ١٦٤)

وقوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : ١٣) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التى هى آية النهار ... وقال تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » (الإسراء : ١٢) .

فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه وتعالى ، لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ماسواه مفتقر إليه نفسه ، فلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه(١) .

وإذا كان القرآن الكريم قد اشتمل على جميع البراهين ، كما قال الزركشى « وإنه ما من برهان ولا دلالة ، وتقسيم وتحديد شىء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به . إذا كان ذلك كذلك ، فإنه يمكن أن يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية عن طريق المتكلمين .

فمن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليها فى قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (الأنبياء : ٢٢) ، لأنه لو كان للعالم صانع لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتفق على أحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لأنه لو أراد أحدهما

---

(١) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

إحياء جسم أراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه والإله لا يكون عاجزاً[1].

ومن ذلك أيضاً الآيات التالية من سورة الحج: قال تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد * ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير * يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) (الحج: ١-٧). وقال العلماء: إن فى هذه الآيات خمس نتائج تستنتج من عشرة مقدمات. قوله: «ذلك بأن الله هو الحق» لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظما لها، وذلك مقطوع بصحته، لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبت قدرته، منقول إلينا بالتواتر، فهو حق، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق، فالله هو الحق. وأخبر تعالى أنه يحي الموتى لأنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر، وحصول

---

(١) السيوطى: الإتقان. جـ ٢. ص: ١٧٣.

فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التى يقيمها الله من أجلهم . وقد ثبت أنه قادر على كل شىء ، ومن الأشياء إحياء الموتى ، فهو يحيي الموتى . وأخبر أنه على كل شىء قدير ، لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ، ومن يجادل فيه بغير بعلم ، يذقه عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شىء قدير ، فهو على كل شىء قدير . وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها ، لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب .إلى قوله : « لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً »،وضرب لذلك مثلا بالأرض الهامدة، التى ينزل عليها الماء فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

ومن خلق الإنسان على ما أخبر به ، فأوجده بالخلق ، ثم أعدمه بالموت ، ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم ، فأحياها بالخلق ، ثم أماتها بالمحل ، ثم أحياها بالخصب ، وصدق خبره فى ذلك كلــه ، بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب ، حتى انقلب الخبر عيانا صدق خبره فى الإتيان بالساعة ، ولا يأتى بالساعة إلا من يبعث من فى القبور ، لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة ، فهى آتية لا ريب فيها ، وهو سبحانه وتعالى يبعث من فى القبور »[1] .

وسواء أكان ما ذكره العلماء من إمكان رد براهين المتكلمين العقلية إلى آيات القرآن صحيحاً أو متكلفاً ، فإن الذى يعنينا هو أن القرآن الكريم قد انفرد بنهج خاص فى الاستدلال على العقيدة الصحيحة بعيداً عمـــا قاله المتكلمون والمناطقة .

وما وضعوه لأنفسهم من قواعد ، وما شرطوه فى أشكال تلك الأقيسة، من شروط لصحة الاستنتاج ، من نحو إيجاب الصغرى ، وكلية الكبرى ،

---

(١) المرجع السابق . جـ ٢ . ص : ١٧٣ .

وغير ذلك مما تضمنه المنطق الأرسطى ، الذى أخذه علماء الكلام مأخذ القبول والتسليم ، وساروا عليه فى براهينهم وأدلتهم .

المناظرات فى القرآن الكريم :

فى القرآن الكريم مناظرات كثيرة ، والذى يهمنا فى هذا المقام منها ما يتصل بالدفاع عن العقيدة ، والاستدلال عليها ، وفيما يلى أهم أنواعها :

١ - الدعوة إلى النظر والتأمل فى الكون :

وذلك من خلال ما يقدمه القرآن من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبير ، الاستدلال على أصول العقيدة الإسلامية ، من مثل توحيد الله ، والإيمان به تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وهذا النوع شائع فى سور القرآن وآياته :

من ذلك قوله : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (البقرة : ٢١-٢٢) .

فقد ذكر الله تعالى ، ههنا « خمسة أنواع من الدلائل : اثنين من الأنفس ، وثلاثة من الآفاق ، فبدأ أولا : بقوله : (خلقكم) . وثانيا : بالآباء والأمهات ، وهو قوله :

(والذين من قبلكم) . وثالثا : بكون الأرض فراشا . ورابعا : بكون السماء بناءاً .

وخامساً : بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض ، وهو قوله : (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم)[١] .

---

(١) الرازى : تفسير الرازى . جـ ٢ . ص : ١٠١-١٠٢ .

«إنما جاء ترتيب هذه الدلائل على هذا النحو، لأن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، وعلم الإنسان بأحوال نفسه، أظهر من علمه بأحوال غيره، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة، وكان أولى بالذكر. فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان، ثم ثنى بآبائه وأمهاته، ثم ثلث بالأرض؛ لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء، والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء، وخروج الثمرات بسببه؛ لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض، والأثر متأخر عن المؤثر، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء»(١).

وقد رتب الله على هذه الدلائل توحيده بعدم اتخاذ أندادا له تعالى، فقال: (ولا تجعلوا لله أندادا)، وإذ المعنى هو الذى خلق لكم هذه الدلائل الباهرة، فلا تتخذوا له شركاء وأنتم تعلمون، أى أنكم لكمال عقولكم تعلمون أن هذه الأشياء لايصح جعلها أندادا لله تعالى، فلا تقولوا ذلك، فإن القول القبيح ممن علم قبحه يكون أقبح»(٢).

ومن تلك الآيات أيضا قوله تعالى: «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» (البقرة: ١٦٣ — ١٦٤).

فالله سبحانه وتعالى بعد أن حكم بالفردانية والوحدانية، ذكر ثمانية

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ١١١ — ١١٢.

أنواع من الدلائل، التى يمكن أن يستدل بها على وجوده سبحانه أولا، وعلى توحيده وبراءته عن الأضداد والأنداد ثانياً :

فالنوع الأول : الاستدلال بأحوال الكون : وما فيه من سموات سبع، ومن مجرات لاحصر لعددها، بما تتضمنه كل مجرة منها من أجرام سماوية متنوعة لا حصر لعددها، من سدم، ونجوم (شموس، وكواكب، وأقمار، ومذنبات، وشهب ونيازك.

ومنها مجرتنا المعروفة باسم الطريق اللبنى أو درب التبانة التى تحوى نحو مائة بليون نجم، متوسط بعد كل نجم منها عن الآخر نحو عشر سنوات ضوئية[1]، والتى تختلف من حيث : بعدها عنا، وأحجامها، وأقدارها الحرارية والضوئية، وألوانها، ومنها : نجمنا أو شمسنا (النظام الشمسى) الذى يدور حوله تسع كواكب، ومجموعة الكويكبات، ويدور حول هذه الكواكب إحدى وثلاثون قمراً، منها : قمر كوكبنا الأرضى، كما يدور حوله أعداد لا حصر لها من المذنبات والشهب والنيازك. وهذه المجرات، وتلك الأجرام السماوية، فى حركة دائبة منتظمة دقيقة، وهو كون يبلغ حداً من الاتساع يعجز العقل البشرى عن الإحاطة به كاملا، وكل ما أمكنه هو إدراك جزء منه فيما يعرف باسم : الكون المرئى، وفى هذا المضمار يقول العالم الفلكى السويسرى فيكتور فايسكوف : « فاتساع الكون الهائل، أعظم من أن يدرك، إدراكا مباشراً بوحدات الأبعاد الأرضية[2]. إلا أن الشيء الأعظم من ذلك كله، هو ماوصل إليه العقل البشرى، الذى ابتدع الآراء،

(١) السنة الضوئية تعادل نحو ٦ مليون مليون ميل، أو ١٠ مليون مليون كيلو متر.

(٢) يقصد المقياس الإنجليزى وهو الميل، والمقياس الفرنسى وهو الكيلو متر.

التى أدت إلى التعرف على أبعاد الكون الشاسعة »[1] . وأنا أقول : والشىء الأعظم من ذلك كله ، الله سبحانه وتعالى ، الذى خلق هذا الكون الشاسع ، وذلك العقل البشرى بمختلف قدراته العقلية ، مبتدع تلك الآراء .

النوع الثانى : الاستدلال بأحوال الأرض : وجعلها ذات يابس وماء وغلاف غازى محكم الطبقات ، وجعل اليابس مرتفعات : جبال وهضاب وتلال ، ومنخفضات : سهول وأودية وأحواض ... الخ . مما يطول ذكره من ظروف طبيعية تلائم وجود ونمو وازدهار كافة الأشكال المختلفة للحياة : إنسانية وحيوانية ونباتية ، وهى ظروف لاتتوافر فى أى كوكب من كواكب المجموعة الشمسية (النظام الشمسى) .

النوع الثالث : الاستدلال باختلاف الليل والنهار : أى تعاقبهما مجيئاً وذهاباً ، واختلافهما فى الطول والقصر ، والنور والظلمة ، وجعل النهار معاشاً ، والليل سباتاً .

النوع الرابع : الاستدلال بالفلك : التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس فى تحصيل معايشهم عن طريق أسفارهم ، حيث خلق الله المواد الخام التى تصنع منها هذه الفلك ، وعلم الإنسان صنعها ، وهداه إلى كيفية تسييرها ، وسخر البحر لتجرى عليه آمنة مطمئنة ، بتدبير الله وعنايته .

النوع الخامس : الاستدلال بإنزال الماء من السماء : لتحيى به الأرض بعد أن كانت هامدة جافة . فقد خلق الله الماء محتويا على صفات الرقة والعذوبة ، مما لايقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى ، قال سبحانه : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » (الملك : ٣٠) وقد جعل الله سبباً للحياة

---

(١) فيكتور فايسكوف : المعرفة والتساؤل ص ٢٧ .

الإنسانية والحيوانية والنباتية ، قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (الأنبياء : ٣٠) .

كما جعله تعالى لأكثر منافع الإنسان ، لجانب جعله سبباً لرزقه ، فقال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » (الذاريات : ٢٢) .

النوع السادس : الاستدلال بخلق الدواب : كما في قوله تعالى : « وبث فيهما من كل دابة » (البقرة : ١٦٤) . ونظيره جميع الآيات الدالة على خلقه الإنسان وسائر الحيوانات كقوله : « وبث فيهما رجالا كثيراً ونساء » (النساء : ١) ، حيث لايخفى على العاقل دلالة ذلك على الواحد المدبر الحكيم . روى أن واحداً ، قال عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني أتعجب من أمر الشطرنج ، فإن رفعته ذراع في ذراع ، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة ، فإنه لايتفق مرتان على وجه واحد . فقال عمر بن الخطاب : ههنا ماهو أعجب منه ، وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر ، إن موضع الأعضاء التي فيه ، كالحاجبين والعينين والأنف والفم ، لايتغير البتة . ثم إنك لاترى شخصين في الشرق والغرب يشتبهان ، فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة ، هذه الاختلافات التي لاحد لها »[1] .

النوع السابع : الاستدلال بتصريف الرياح وتحريكها : دفعه نظام مخصوص وبقدر معلوم ، فقد خلقها الله على وجه يقبل التصريف ، وهو الرقة واللطافة ، ثم إنه سبحانه يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم للإنسان والحيوان والنبات ، ويكفي أنها مادة النفس الذي لو انقطع ساعة عن الإنسان والحيوان لم تبق لهما حياة .

النوع الثامن : الاستدلال بالسحاب المسخر بين السماء والأرض : حيث تثيره الرياح محملا بالماء ، فيكون المطر على ماشاء الله من الأرض ، لتصبح مخضرة بمنته تعالى ورحمته .

---

(١) الرازي : تفسير الرازي ج ٢ ص ١٩٩ .

تلك هى الدلائل الثمانية وهى : « من حيث أنها قد وقعت على وجه الاتساق والانتظام ، من غير ظهور الفساد فيها ، دلت على وحدانية الصانع ، على ما قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »[1] .

٢ ـ الرد على الخصوم وإلزام أهل العناد :

فقد ناظر القرآن الكريم ، وجادل الخصوم ، فأفحم المعاندين وألزم المنكرين ، وأرشد المترددين الشاكين ، وأقنعهم بالدليل القطعى بصحة ما يدعو إليه ، وقد نهج القرآن فى رده على الخصوم مناهج متعددة ، وجاء لهم بالمنع والنقض والمعارضة . وتحت هذا النوع من المناظرة صور متعددة فيما يلى أهمها :

(أ) الاستفهام التقريرى :

وهو عبارة عن تقرير المخاطب بطريق الاستفهام ، عن الأمور التى يسلم بها الخصم ، وتسلم بها العقول ، حتى يعترف بما ينكره ، وهذا اللون من المناظرة والجدل « من أحسن جدل القرآن بالبرهان ، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات ، أو أن تكون بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية »[2] .

ولا شك أن فى الاستفهام استثارة وبيانا لما فى النفوس ، ليكون الإلزام أبلغ وأقوى . . ومن أمثلته ، ما جاء فى الاستدلال بالخلق على الخالق ، قال تعالى : « فرأيتم ما تمنون ۝ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ۝ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ۝ على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فى ما لا تعلمون ۝

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٢) محمد على سلامة : منهج الفرقان فى علوم القرآن ص : ٤٣ .

ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » (الواقعة : ٥٨ - ٧٣) .

ومن ذلك ، ما جاء فى الاستدلال على وحدانيته عز وجل ، قال تعالى : « وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون * أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلا ما تذكرون * أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الريح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما تشركون * أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل : ٥٩ - ٦٤) .

(ب) الاستدلال بالمبدأ على المعاد : وهو كثير فى القرآن الكريم ، للرد على منكرى البعث من الخصوم ، ومن أمثلته :

قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » (يس : ٧٨ - ٨١) .

وقوله تعالى : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد » (ق : ١٥) .

وقوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى » (القيامة : ٣١ - ٤٠) .

٣ - الأقيسة الإضمارية :

وهى التى تحذف فيها إحدى المقدمات ، مع وجود ما ينبىء عن المحذوف . والناظر المستقر لأدلة القرآن ، يرى أن أكثرها قد حذفت منه إحدى المقدمات . وذكر صاحب شرح الطحاوية ما نصه : « إن الطريقة الفصيحة فى البيان ، أن تحذف إحدى المقدمات ، وهى طريقة القرآن »[1] .

ومن أمثلة ذلك ، ما قاله تعالى رداً على النصارى ، فى قولهم بإلهية عيسى عليه السلام : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (آل عمران : ٥٩ - ٦٠) . فنحن نجد أنه قد حذفت مقدمة من الآيتين : « وكان سياق الدليل ، فى غير كلام الله تعالى ، يكون : أن آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك ، لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم ، فعيسى أيضاً ليس ابنا ولا إلهاً .

وإن الحذف قد صير فى الكلام طلاوة ، وأكسبه رونقاً ، وجعل الجملة مثلا مأثوراً ، يعطى الكلام حجة فى الرد على النصارى ، ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه ، وإنما خلق من تراب ، فلا عزة إلا لله تعالى[2] .

---

(١) على أبى العز الحنفى شرح الطحاوى فى العقيدة السلفية ص ٢٣ .

(٢) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى : القرآن ص ٣٩٨ بتصرف .

٤ ـ الأمر التعجيزى الدال على التحدى :

وذلك بأن يطلب القرآن الكريم من الخصم ما يثبت دعواه ، فلا يستطيع إلى ذلك سبيل ، فيكون ملزما له أيما إلزام . ومن أمثلته قوله تعالى ، رداً على من يتخذ إلهه من دون الله : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (الأحقاف : ٤) ويتجلى ذلك الأمر التعجيزى الدال على التحدى، فى إثبات نبوته (ﷺ) ، حين تحدى بالقرآن العرب ، فطلب منهم أن يأتوا بمثله فعجزوا : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » (الطور : ٣٤) فطلب منهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه فعجزوا : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (هود : ١٣) .

فطلب منهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فعجزوا : « قل فأتوا بسورة مثله » (يونس : ٣٨) .

٥ ـ إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيض مدعاه :

ومن أمثلته قوله تعالى تعالى رداً على اليهود ، حين زعموا أنه لم ينزل الله على بشر شيئاً ، بقوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (الأنعام : ٩١) فقد جاءت دعوى اليهود فى صورة السلب الكلى ، وجاء رد القرآن فى صورة الإيجاب ، وهذا ما اعتبره المناطقة شكلا من أشكال التناقض[1] .

---

(١) مناع القطان : مباحث علوم القرآن ص ٣٠٣ وزاهر عواض الألمعى : مناهج الجدل فى القرآن الكريم ص ٧٨ - ٧٩ .

٦ - إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد :

كقوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ٭ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » (الأنعام : ١٠٠ - ١٠١) . فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد ، وأن التولد إنما يكون من أن يتولد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلا بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع ، فيمتنع مع كونه عالماً ، أن يكون كالأمور الطبيعية ، التى يتولد عنها الأشياء بلا شعور ، كالحار والبارد ، فلا يجوز إضافة الولد إليه(١) . وغير ذلك من الصور ، التى تندرج تحت هذا الضرب مما لا يسمح به هذا المختصر .

٣ - إثبات القرآن الكريم للعقيدة من خلال تأكيدها والإقسام عليها :

يعتبر القسم من الأساليب التى تؤدى إلى تمكين الشيء فى النفس وترسيخه فيها ، فهو من الوسائل التى يزول بها ريب المرتابين ، ويدفع بها إنكار المنكرين ، ومن ثم ، اتخذه القرآن الكريم مسلكا من مسالك إثبات العقيدة الإسلامية وتقريرها ، أمام من فى قلبه شك أو إنكار ، ذلك أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً : « وقال أبو القاسم القشيرى بأن : الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يفصل باثنين :

إما بالشهادة ، وإما بالقسم ، فذكر تعالى فى كتابه النوعين ، حتى لا يبقى

---

(١) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٢١٩ .

لهم حجة فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » (آل عمران : ١٨).

وقال : (قل إى وربى إنه لحق) . وعن بعض الأعراب ، أنه لما سمع قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » فورب السماء والأرض إنه لحق » (الذاريات : ٢٢ — ٢٣) ، صرخ وقال : من ذا الذى أغضب الجليل ، حتى ألجأه إلى اليمين ، ثم إن القرآن نزل للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ومنهم الخصم الألد . فالقسم فى كلام الله يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات ، ويقيم الحجة ، ويؤكد الإخبار ، ويقرر الحكم فى أكمل صورة[1] .

وقبل أن نذكر ما أقسم الله به على إثبات أصول العقيدة الإسلامية ، وما أقسم عليه منها ، نقدم كلمة حول القسم معناه وصيغته[2] .

معنى القسم وصيغته :

القسم واليمين بمعنى واحد ، ويعرف بأنه : ربط النفس بالامتناع عن شىء أو الإقدام عليه ، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً . فمثال المعنى المعظم عند الحالف حقيقة : القسم بذات الله وصفاته ، ومثال المعظم اعتقاداً بما كان يفعله أهل الجاهلية من القسم بآلهتهم . والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل أقسم ، أو أحلف ، متعديا بالباء إلى المقسم به ، ثم يأتى المقسم عليه ، وهو المسمى بجواب القسم ، كقوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » (النحل : ٣٨) .

---

(١) السيوطى : الإتقان جـ ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠ ومناع القطان : مباحث فى علوم القرآن جـ ٢٩١ .

(٢) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٩١ بتصرف .

فأجزاء صيغة القسم ثلاثة :

١ ـ الفعل الذى يتعدى بالباء .

٢ ـ والمقسم به .

٣ ـ والمقسم عليه .

ولما كان القسم يكثر فى الكلام ، اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ، وهى لم ترد فى القرآن إلا مع فعل القسم ، فى قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » (الأنعام : ١٠٩ ـ النور : ٥٣ ـ النحل : ٣٨ ـ فاطر : ٢٤٣ ، ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة ، كقوله تعالى : « والليل إذا يغشى » (الليل : ١) .

وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله : « وتالله لأكيدن أصنامكم » (الأنبياء : ٥٧) وهذا قليل ، أما الواو فكثيرة [١] . والآن إلى ماوعدنا بذكره من بيان ما أقسم الله به ، وما أقسم عليه ، من أصول العقيدة وأركانها .

١ ـ ما أقسم الله به :

إن المتأمل فى آيات القرآن الكريم ، يجد أن المقسم به فيها لايتعدى ضربين : القسم بذاته ، والقسم ببعض مخلوقاته . يقول ابن القيم : « وهو سبحانه ، يقسم بأمور على أمور ، وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته ، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته » [٢] . لكن كيف يقسم الله بخلقه ، مع نهيه عباده أن يقسموا بغيره ، فقد روى عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » [٣] .

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٩١ بتصرف .

(٢) ابن القيم : التبيان : جـ ١ ص ٤٥ .

(٣) رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم .

ومن هنا اختلف العلماء فى توجيه أقسامه تعالى بآياته ومخلوقاته :

فابن القيم يرى : « أن إقسامه ببعض المخلوقات ، دليل على أنه من عظيم آياته »[1] .

وقال السيوطى : « أقسم الله بنفسه تارة ، وتارة بمصنوعاته ، لأنها تدل على بارىء وصانع »[2] .

« وقال ابن أبى الأصبع فى أسرار النوائح : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل ، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : إن الله يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله » .

٢ ــ ما أقسم الله عليه من أصول العقيدة :

أقسم الله تعالى على أركان العقيدة ، وأصول الإيمان ، التى يجب على الخلق معرفتها .

(ا) فما أقسم عليه إثبات الوحدانية له تعالى : قال تعالى : والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا * إن إلهكم لواحد » (الصافات : ١ ــ ٤) .

(ب) ومما أقسم الله عليه أيضاً القرآن الكريم ، وأنه وحى من عنده : قال تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم » (الواقعة : ٧٥ ــ ٧٧) .

---

(١) ابن القيم : التبيان جـ ١ ص ٤٥ .

(٢) السيوطى : الاتقان : جـ ٢ ص ١٧٠ .

(ج) وما أقسم الله عليه أن محمداً رسول من عنده: قال تعالى: «يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين» (يس: ١ — ٣). وقال تعالى: «ن * والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون» (القلم: ١ — ٣).

(د) ومما أقسم الله عليه كذلك المعاد والوعد والوعيد: وقد حظى هذا النوع بحظ كبير من أسلوب القسم، فأقسم الله عليه بذاته تارة، وبمخلوقاته تارة أخرى. فقد أمر نبيه ﷺ أن يقسم بذاته تعالى على وقوع المعاد وقيام الساعة فى ثلاثة مواضع: قال تعالى: «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن» (التغابن: ٧). وقال تعالى: «وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم» (سبأ: ٣) وقال تعالى: «ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق» (يونس: ٥٣).

كذلك أقسم تعالى بنفسه وعيداً للكافرين، وتهديداً لهم، أنه سوف يحشرهم مع الشياطين يوم القيامة: «فوربك لنحشرنهم والشياطين» (مريم: ٦٨). كما أقسم تعالى بنفسه أيضاً على سؤالهم عما يعلمونه فى الدنيا «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» (الحجر: ٩٢ — ٩٣).

وأخيراً أقسم بذاته عز وجل على قدرته على إهلاك الكافرين، وخلق من هم خير منهم طاعة وامتثالا: «فلا أقسم برب المشرق والمغرب * إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين» (المعارج: ٤٠ - ٤١) ولا يخفى ما فى ذلك من الوعيد والتهديد.

٢ — ومما أقسم الله به تعالى من مخلوقاته: ومن هذا النوع:

قوله تعالى: «والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا *

فالمقسمات أمرا * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع »
(الذاريات : ١ — ٦).

وقوله تعالى : « والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشرا * فالفارقات فرقا * فالملقيات ذكرا * عذرا أو نذرا * إنما توعدون لواقع » (المرسلات : ١ - ٧)[1] ، إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المقام ، وهى كثيرة فى القرآن الكريم .

٤ — تصوير المعانى العقلية فى صورة حسية :

ومن بين المسالك التى سلكها القرآن الكريم ، فى إثبات العقيدة وإيضاحها ، وتقريرها فى الأذهان ، إبراز المعانى المعقولة فى صورة حسية ، عن طريق التشبيه والتمثيل . ذلك أن : « الحقائق السامية فى معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة ، إذا صيغت فى قالب حسى يقربها إلى الأفهام ، بقياسها على المعلوم اليقينى ، والتمثيل هو فى الغالب الذى يبرز المعانى فى صورة حسية تستقر فى الأذهان ، بتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظير على النظير ، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالا ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، وهو من أساليب القرآن الكريم ، فى ضروب بيانه ونواحى إعجازه »[2].

ومما ذكره القرآن الكريم من إبراز المعقول فى صورة محسوسة فى مجال العقيدة :

---

(١) السيوطى : الإتقان . جـ ٢ ص : ١٧٠ . وابن القيم : التبيان جـ ١ . ص ٤٩ - ٥١ بتصرف .

(٢) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٨١ .

قوله تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (الحج : ٧٣) .

فقد بينت الآية عن طريق الحس والمشاهدة ، ضآلة الآلهة التى تتخذ من دون الله ، وأنها أصغر من أن تعبد ، أو تطاع ، أو تتخذ وسيلة للشفاعة عند الله ، لأنها لا تقدر على شيء صغر ، أو كبر ، قل ، أو عظم .

ومنها أيضا قوله تعالى ، فى التفرقة بين المؤمن وتوحيده لله تعالى ، والكافر وإشراكه به عز وجل : «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (الزمر : ٢٩) فالله تعالى قد ضرب : « للمؤمن الموحد والكافر المشرك مثلا ، رجل مملوك لشركاء متشاكسون مختلفون ، كل له رأى وحاجة فكل يطلب من هذا العبد حاجة لا يطلبها الآخر ، فماذا يفعل ؟ وقد تقاسمته الأهواء واختلفت به السبل ؟ . وهذا رجل آخر ، مملوك لشخص واحد ، فهو سالم له ، ليس لغيره سبيل عليه ، هكذا المسلم لا يعبد إلا الله ، ولا يسعى لإرضاء غير ربه ، الرحمن الرحيم ذى الفضل العظيم عليه ، فهل تراه فى راحة ، أم حيرة وضلال ؟ أما المشرك فهو يعبد آلهة ، ويتجه إلى شركاء مختلفة ، فهو دائماً فى حيرة وارتباك ، لا يدرى كيف يرضى الجميع ؟ .

هل يستوى المسلم الموحد بالكافر المشرك ؟ لا يستويان بحال . . الحمد لله الذى وفقنا للإسلام ، وهدانا إلى الحق ، ولولاه ما اهتدينا . فالحمد له جل شأنه ، بل أكثر الناس لا يعلمون ذلك »[1].

---

(١) د. محمد محمود حجازى : التفسير الواضح جـ ٢٣ ص : ٨٩ — ٨١ .

إلى غير ذلك ، مما جاء فى القرآن الكريم من آيات على هذا النحو ، بقصد إثبات العقيدة وتثبيتها ، بحيث لا يبقى مجال لشك الشاكين ، وريب المرتابين ، فهو الكتاب الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا يبلى من كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

وبعـــد :

فإنى أؤمن بأن الحديث عن منهج القرآن الكريم ، فى إثبات العقيدة ، يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، ولا يسعه بحث أو بحوث ، لكن الذى أرجوه أن أكون قد وفقت فى رسم صورة للمنهج القرآنى ، فى إثبات العقيدة الإسلامية الحقة ، التى قوامها كلمة التوحيد ، كلمة : « لا إله إلا الله » ، التى من قالها دخل الجنة . وهى العقيدة التى لم توجد عقيدة فى دين من الأديان السابقة ، إلا وقد أصيبت ، ما عدا الإسلام ، بشهادة أحد أعداء الإسلام ، الذى أوصى بالاشتداد فى حرب تلك العقيدة وهدمها ، لما يرى فيها من خطر يتهدد دينه ، وهو : زويمر ، رأس المبشرين بالنصرانية ، إذ يقول : « لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد ، أعظم من عقيدة الدين الإسلامى الذى اقتحم قارتى آسيا وأفريقيا ، وبث فى مائتى مليون من البشر عقائده ، وشرائعه ، وتقاليده ، وأحكم عروة ارتباطهم » .

خاتمـــة

وأخيراً فلعله قد بان ، مما قدمته عن منهج القرآن ومسالكه ، فى إثبات العقيدة الصحيحة ، الحقائق التالية :

أولا : إذا كان القرآن الكريم ، هو الينبوع ، الذى تستقى منه العقيدة الصحيحة ، فهو كذلك الينبوع ، الذى يستقى منه منهج إثبات هذه العقيدة ، ومن ثم ، فالمناهج التى توصل إلى غير ما أثبته القرآن الكريم ، لا تستحق أن ينظر إليها ، بل حرى بها أن تلفظ ، ويضرب بها عرض الحائط .

ثانيا : أن القرآن الكريم فيما سلكه من مسالك ، وما رسمه من مناهج ، فى إثبات عقيدة الإسلام ، لم يبق عذراً لمبطل ، ولا حجة لمفكر ، فى ترك الإيمان بالله تعالى ، وعدم الدخول فى هذا الدين الحنيف .

ثالثا : أن القرآن الكريم قرر أركان العقيدة الإسلامية ، فى آيات كريمة عديدة ، وهذه الآيات الكريمة يمكن تصنيفها لمجوعتين : آيات تجمع بين كل هذه الأركان ، وآيات تقرر كل ركن على حدة .

رابعا : أن القرآن الكريم لم يستخدم مناهج تقليدية ، ولا لجأ إلى طرق بشرية تقبل الخطأ والصواب ، وتلائم عمر دون عمرو ، وتختص بجيل دون جيل . والمنهج القرآنى هذا ، مغاير تماما لطرق المتكلمين ، فلجانب أنه أعم وأشمل منها ، إذ يعمها هى وغيرها من الطرق ، يتضمن طرقا ذاتية خاصة به مما يسم القرآن الكريم بمنهجية ذاتية مستقلة فى مجال إثبات صحة العقيدة الإسلامية ، والدفاع عنها ، وغيرها من المجالات .

خامسا : أن المنهج القرآنى فى إثبات العقيدة الإسلامية الحقة ، والدفاع

عنها ، تمثل فى الدعوة إلى النظر والتأمل فى الكون ، والرد على أهل الخصوم وإلزام أهل العناد ، وإثبات العقيدة بالقسم ، وتصوير المعانى العقلية فى صورة حسية .

سادسا : أن القرآن الكريم ليس معجزاً من حيث تركيبه ومعناه فحسب ، وإنما يمتد إعجازه ليشمل جميع أقطاره وجوانبه ، فهو كتاب الثقلين جميعاً ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

سابعا : وانطلاقا مما سبق ، يتحتم على المسلمين أن يعتمدوا فى إثبات عقيدتهم على المنهج القرآنى ، فهو المنهج الذى سار عليه رسول الله ﷺ ، وترسم خطاه من بعده سلف الأمة رضوان عليهم أجمعين ، وكانت نتيجته أن دخل الناس فى دين الله أفواجا .

هدانا الله إلى صراطه المستقيم ، والاعتصام بحبله المتين ، والتمسك بكتابه الكريم وهدى نبيه الأمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

د. عبد الحميد على عز العرب

مدرس العقيدة والفلسفة بالكلية

مراجع البحث

١ ــ السيوطى : الإتقان جـ ١ ص ٥ .

٢ ــ البخارى : الجامع الصحيح : كتاب المغازى .

٣ ــ الكلبى : الأصنام ص ٣٤ .

٤ ــ مسلم : صحيح مسلم كتاب الإيمان .

٥ ــ على أبى العز الحنفى شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية ص ٢٦٥

٦ ــ ابن منظور : لسان العرب جـ ١١ ص ١٥ .

٧ ــ المعلقات : ص : ٨٤ .

٨ ــ الزمخشرى : أساس البلاغة ص ١١١ .

٩ ــ الإمام أحمد : مسند ابن حنبل جـ ٤ ص ١٢٨ .

١٠ ــ ابن الأثير جـ ١ النهاية فى غريب الحديث جـ ١ ص ٤٣٣ .

١١ ــ ابن فارس : مقاييس اللغة جـ ١ ص ٤٣٣ .

١٢ ــ ابن سيناء : الشفاء : كتاب الجدل جـ ١ ص ٢٣ .

١٣ ــ المصباح المنير ص ١٢٨ .

١٤ ــ الجرجانى : التعريفات ص ٦٦ .

١٥ ــ أبو حيان : البحر المحيط جـ ١ ص ٢٢٣ .

١٦ ــ أبو البقاء : الكليات ص ١٤٥ .

١٧ ــ الزركشى : البرهان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٢٤ .

١٨ ـ ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

١٩ ــ الرازى تفسير الرازى . جـ ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

٢٠ ــ محمد على سلامة : منهج الفرقان فى علوم القرآن ص ٤٣ .
٢١ ــ محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ص ٣٩٨ .
٢٢ ــ مناع القطان : مباحث علوم القرآن ص ٣٠٣ .
٢٣ ــ زاهر عواض الألمعى : مناهج الجدل فى القرآن الكريم ص : ٧٨ - ٧٩ .
٢٤ ــ ابن القيم : التبيان جـ ١ ص ٤٥ .
٢٥ ــ محمد محمود حجازى : التفسير الواضح جـ ٢٣ ص ٨٠ - ٨١ .